قال ابن كثير رحمه الله تعالى :

[فصلٌ (بعث مؤتة) : ولما كان في جمادى الآخرة من سنة ثمان بعث ﷺ الأمراء إلى مؤتة ، وهي قرية من أرض الشام ، ليأخذوا بثأر من قُتل هناك من المسلمين . فأمَّر على الناس زيد بن حارثة مولاه ﷺ وقال : "إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب ، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة" . فخرجوا في نحوٍ من ثلاثة آلاف ، وخرج ﷺ معهم يودِّعهم إلى بعض الطريق ، فساروا حتى إذا كانوا بمعان بلغهم أن هرقل ملك الروم قد خرج إليهم في مائة ألف ومعه مالك بن زافلة في مائة ألف أخرى من نصارى العرب من لخم أو جذام ، وقبائل قضاعة من بهراء وبلي وبلقين ؛ فاشتور المسلمون هناك وقالوا : نكتب إلى رسول الله ﷺ يأمرنا بأمره أو يمدنا . فقال عبد الله بن رواحة ﷺ : يا قوم !

والله إن الذي خرجتم تطلبون أمامكم . يعني الشهادة . وإنكم ما تقاتلون الناس بعدد ولا قوة ، وما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ، فانطلقوا فهي إحدى الحسنيين : إما ظهور ، وإما شهادة . فوافقه القوم فنهضوا ، فلما كانوا بتخوم البلقاء لقوا جموع الروم فنزل المسلمون إلى جنب قرية مؤتة ، والروم على قرية يقال لها مشارف ، ثم التقوا فقاتلوا قتالًا عظيماً].

****

فهذا فصل ذكر فيه المصنف الإمام بن كثير رحمه الله تعالى بعث مؤتة ، والنبي عليه الصلاة والسلام بعث هذا البعث في السنة الثامنة من الهجرة ، قال الحافظ بن كثير ((**في جمادى الآخرة من سنة ثمان**)) ، ومن أهل العلم بالمغازي من قال : إنه في جمادى الأولى من سنة ثمان .

قال رحمه الله : ((**بعث ﷺ الأمراء إلى مؤتة**)) ؛ لأن هذا البعث تميز عن غيره من البعوث وانفرد بأن النبي عليه الصلاة والسلام أمَّر أمراء واحداً تلو الآخر مثل ما سيأتي ((إن أصيب زيد فجعفر فإن أصيب جعفر فعبد الله)) وهذا لم يحصل في شيء من البعوث والغزوات ، وإنما كان يؤمِّر عليهم واحداً ، لكن بعث مؤتة أمّر النبي عليه الصلاة والسلام هؤلاء الأمراء بحيث يكون أولهم زيد ، فإن أصيب فجعفر ، فإن أصيب فعبد الله ابن رواحة ، فإن أصيب فينظر المسلمون في أمرهم ، وفعلاً هؤلاء الثلاثة كلهم أصيبوا وقُتلوا ﷺ في هذه المعركة .

قال : ((**إلى مؤتة وهي قرية من أرض الشام**)) ؛ وموقع هذه القرية في الأردن من أرض الشام بين معان وعمَّان.

قال : ((**ليأخذوا بثأر من قُتل هناك**)) ؛ وسبق للمصنف رحمه الله تعالى أن عبَّر بكلمة الثأر عندما ذكر غزوة بني لحيان ، قال ((ليأخذوا بثأر أصحاب الرجيع)) ، والمراد بالثأر :

المطالبة بالدم أو العمل على القصاص من القاتل والمعتدي ، ولا تفيد المعنى الذي هو ربما يكون شائع في بعض المجتمعات أو في أزمنة متأخرة وهو أن الثأر يكون في مواضع الذم ، لأن الثأر كما في كتب اللغة وقواميس اللغة هو الدم والطلب به ، وثأَر به : أي طلب دمه وقَتَل قاتله ، وجاء في حديث في مصنف عبد الرزاق قال : قال ﷺ : ((فإن قُتلت امرأة فعقلها بين ورثتها وهم يثأرون بها ويقتلون قاتلها)). فالشاهد أن هذه الكلمة لا شيء فيها ، هي كلمة صحيحة في مدلولها .

فقال هنا رحمه الله تعالى : ((**ليأخذوا بثأر من قُتل هناك من المسلمين**)) ؛ أي يطالبون بدمه ، ويقاتلونهم لكونهم اعتدوا وبغوا ، فهذا رسول أرسله ﷺ يحمل رسالة الإسلام والدعوة إلى الله ﷻ إلى ملك بُصرى بكتاب منه عليه الصلاة والسلام ، وكان الذي أرسله عليه الصلاة والسلام هو الحارث ابن عمير الأزدي ﷺ ، وكان الرسل الذين يحملون كتاباً من رئيس إلى رئيس لا يُقتلون ، وهذا أمر تُعورفَ عليه أنَّ الرسل لا تُقتل ، فقتلوا رسول رسولِ الله ﷺ .

قال : ((**فأمَّر على الناس زيد بن حارثة مولاه** ﷺ)) ؛ زيد من الموالي فجعله عليه الصلاة والسلام في الإمرة أولاً ، وفي هذا دلالة على مكانة زيد ابن حارثة مولى رسول الله ﷺ وحِبّه صلوات الله وسلامه عليه ، وهو الصحابي الذي نُصَّ على اسمه في كتاب الله في آيات تتلى يحفظها المسلمون ويقرؤونها في قوله ﷻ : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا ﴾ [الأحزاب:٣٧] ويتردد هذا الاسم مع المسلم كلما تلا هذه الآية من كتاب الله ، فهو صحابي جليل له مكانته ومنزلته العالية ، وهو أيضاً من السابقين للإسلام رضي الله عنه وأرضاه .

فأمَّره عليه الصلاة والسلام في بعث مؤتة ((**وقال : إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب**)) ؛ وهو ابن عم النبي عليه الصلاة والسلام والأخ الشقيق لعلي بن أبي طالب وهو أسن من علي ، وأيضاً من السابقين في الإسلام وكان هاجر إلى الحبشة وكان مجيئه إلى النبي عليه

الصلاة والسلام بعد فتح خيبر ، وقبّل بين عينيه فرحًا وسرورً بمجيء هذا الصحابي الجليل رضي الله عنه وعن الصحابة أجمعين .

قال : ((**فإن أصيب جعفر فعبد الله ابن رواحة**)) ؛ وهذا الحديث مخرج في صحيح الإمام البخاري من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

قال المصنف رحمه الله تعالى : ((**فخرجوا في نحوٍ من ثلاثة آلاف**)) ؛ وهو أكبر عدد إلى ذلك الوقت خرج فيه جيش لرسول الله ﷺ ، وما سبق ذلك مثل غزوة خيبر والأحزاب كان يقل عن هذا العدد بل لا يصل إلى الألفين ، فثلاثة آلاف هو أكبر جيش إسلامي في الغزوات إلى ذلك الوقت ، أما في فتح مكة وسيأتي معنا فكان الجيش يبلغ عشرة آلاف مقاتل .

قال : ((**وخرج ﷺ معهم يودِّعهم إلى بعض الطريق**)) ؛ أي أنه عليه الصلاة والسلام لم يشارك في هذه الغزوة وإنما خرج معهم ، قيل إنه خرج معهم إلى ثنية الوداع وودعهم صلوات الله وسلامه عليه وأوصاهم بالوصايا المعروفة التي كان يوصي بها من خرجوا مقاتلين في سبيل الله ؛ يوصيهم بتقوى الله ﷻ ، يوصيهم بالرفق بمن معهم من المسلمين ، يوصيهم بتسمية الله جل وعلا ، يوصيهم بعدم قتل الكبير والمرأة والطفل ، وصايا عظيمة معروفة كان يوصي بها عليه الصلاة والسلام الأمراء والقادة في البعوث والسرايا التي يبعثها صلوات الله وسلامه عليه .

قال : ((**فساروا حتى إذا كانوا بمعان** – في أرض الأردن الآن – **بلغهم أن هرقل ملك الروم قد خرج إليهم في مائة ألف**)) ؛ هذا في قول لبعض أهل المغازي والسير أن هرقل نفسه خرج في هذا الجيش ، وفي بعض الروايات الأخرى أنه لم يخرج بنفسه وإنّما خرج في هذا الجيش بعض قادته.

قال : ((**ومعه مالك ابن زافلة في مائة ألف أخرى من نصارى العرب من لخم وجذام وقبائل قضاعة من بهراء وبلي وبلقين**)) ؛ هذه قبائل عربية متنصرة ، فخرج منهم – حسب هذه الرواية التي ذكرها ابن كثير رحمه الله – مائة ألف ، وخرج مع هرقل مائة ألف ، فالعدد كبير جداً ، حسب هذه الرواية يبلغ مائتي ألف مقاتل لكن بعض أئمة المغازي مثل موسى ابن عقبة وآخرين لم ينصُّوا على عدد معين وإنّما قالوا : ((في جموع كثيرة)) ؛ والأقرب والله أعلم أنهم جموع كثيرة تزيد وتضعُف على جيش المسلمين الذي يبلغ عدَّتهم ثلاثة آلاف مقاتل ، لكن في بلوغها هذا العدد بُعد والله تعالى أعلم .

قال : ((**فاشتوَر المسلمون**)) ؛ أي : تشاوروا ، يستشيرهم قائدهم وأميرهم زيد ابن حارثة ﷺ ؛ لما رأوا هذا الجيش العرمرم والأعداد الغفيرة والجموع الكثيرة التي اجتمعت والعتاد شاور بعضهم بعضاً.

((**وقالوا : نكتب إلى رسول الله ﷺ يأمرنا بأمره أو يُمدنا**)) يعني بمدد ، لأنهم رأوا أن أعداد هؤلاء الكفار الذين احتشدوا وتجمعوا لقتال المسلمين أعداد غفيرة جداً ، فبعضهم أشار أن يرسَل إلى النبي ﷺ يستشار في ذلك ، يأمر بماذا ؟ بالقتال أو بالرجوع ؟ أو يمدنا بمدد .

((**فقال عبد الله بن رواحة : يا قوم ! والله إنَّ الذي خرجتم تطلبون أمامكم ـ يعني الشهادة ـ**)) ؛ الشهادة في سبيل الله أمامكم أنتم مقبلون عليها .

((**وإنكم ما تقاتلون الناس بعدد ولا قوة**)) ؛ قتال المسلمين لغيرهم ليس بالعدد ولا بالقوة ولكن بالمدد من الله والعون والتوفيق والنصر ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [الأنفال:١٠] ، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧] .

قال : ((**وما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به**)) ؛ فالقتال نصرةً لدين الله وإعلاءً لكلمة الله ، والمقاتِل في هذه الحال يظفر بإحدى الحسنيين : إما الشهادة في سبيل الله ، أو نصرة وانتصار دين الله ﷻ . فشجعهم هذا التشجيع العظيم وقال هذه الكلمات المتينة العظيمة المسدَّدة ، فكانت بمثابة شحذ الهمم ورفع المعنويات ؛ فتهيأ الجميع واستعدوا للقتال.

((**فانطلِقوا ، فهي إحدى الحسنيين : إما ظهور ، وإما شهادة**)) ؛ إما ظهور بالانتصار على الأعداء ، وإما شهادة .

((**فوافقه القوم فنهضوا**)) ؛ وهذا أيضاً يدل دلالة واضحة نحتاج إليها بعد قليل إلى قوة شجاعة عبد الله ابن رواحة وقوة توكله على الله ﷻ وهمته العالية وأيضاً قوة إقدامه وشجاعته وعدم تردده ﷺ ؛ فهو الذي شجَّع الجيش بأسره بهذه الكلمات العظيمة المباركة التي على إثرها نهضوا للقتال .

قال : ((**فلما كانوا بتخوم البلقاء لقوا جموع الروم ، فنزل المسلمون إلى جنب قرية مؤتة ، والروم على قرية يقال لها مشارف ، ثم التقوا فتقاتلوا قتالاً عظيماً**)).

قال رحمه الله :

[**وقُتل أمير المسلمين زيد بن حارثة ﷺ والراية في يده ، فتناولها جعفر ونزل عن فرس له شقراء فعقرها ، وقاتل حتى قطعت يده اليمنى ، فأخذ الراية بيده الأخرى فقُطعت أيضاً ، فاحتضن الراية ثم قُتل ﷺ عن ثلاث وثلاثين سنة على الصحيح . فأخذ الراية عبد الله بن رواحة الأنصاري ﷺ وتلوَّم بعض التلوم ثم صمَّم وقاتل حتى قتل ، فيقال : إن ثابت بن أقرم أخذ الراية وأراد المسلمون أن يؤمِّروه عليهم فأبى ، فأخذ الراية خالد بن الوليد ﷺ فانحاز بالمسلمين وتلطف حتى خلص المسلمون من العدو ، ففتح الله على يديه كما**

أخبر بذلك كله رسول الله ﷺ أصحابه الذين بالمدينة يومئذ وهو قائم على المنبر ، فنعى إليهم الأمراء واحداً واحداً وعيناه تذرفان ﷺ ، والحديث في الصحيح . وجاء الليل فكف الكفار عن القتال ، ومع كثرة هذا العدو وقلة عدد المسلمين بالنسبة إليهم لم يُقتل من المسلمين خلْقٌ كثير على ما ذكره أهل السير ، فإنهم لم يذكروا فيما سموا إلا نحو العشرة . وكرَّ المسلمون راجعين ، ووقى الله شر الكفرة وله الحمد والمنة ، إلا أن هذه الغزوة كانت إرهاصاً لما بعدها من غزو الروم ، وإرهاباً لأعداء الله ورسوله] .

****

ثم ذكر الإمام بن كثير رحمه الله تعالى أن الصفين التقوا وتقاتلوا قتالاً عظيما قال : ((**وقُتل أمير المسلمين زيد ابن حارثة والراية في يده**)) ؛ الراية : هي علَم الجيش الذي في ضوءه يكون السير والتقدم . فكان ﷺ يحمل راية القتال في يده وقاتل قتالاً عظيما حتى قُتل .

((**فتناولها جعفر**)) ؛ تناول الراية جعفر لأن النبي عليه الصلاة والسلام أوصاهم بذلك ، قال : ((إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب)) .

((**فتناولها جعفر ونزل عن فرس له شقراء فعقرها ، وقاتل حتى قُطعت يده اليمنى ، فأخذ الراية بيده الأخرى فقطعت أيضاً ، فاحتضن الراية**)) ؛ واستمر محتضناً لها ماضٍ في مقاتلة هؤلاء مقدِماً وليس محجماً إلى أن قُتل ﷺ . جاء في حديث رواه الترمذي حسَّنه بعض أهل العلم من حديث أبي هريرة أن النبي عليه الصلاة والسلام قال : ((رَأَيْتُ جَعْفَرًا يَطِيرُ فِي الجَنَّةِ مَعَ المَلَائِكَةِ)) ولهذا يسمى جعفر الطيار ، وأيضاً يسمى ﷺ ذو الجناحين لأن يداه قُطعتا وذكر النبي عليه الصلاة والسلام أنه رأى جعفر في الجنة يطير مع الملائكة بجناحين ، وجاء في صحيح البخاري عن عبد الله ابن عمر ﷺ أنّه كان إذا سلَّم على عبد الله ابن جعفر قال : «السَّلاَمُ عَلَيْكَ يَا ابْنَ ذِي الجَنَاحَيْنِ» ، لما اشتُهر وعُلِم من خبر النبي عليه الصلاة والسلام أن جعفر له جناحان يطير بهما مع الملائكة.

قال الإمام ابن كثير : ((**ثم قُتل** ﷺ **عن ثلاثٍ وثلاثين سنة على الصحيح**)) ؛ والذي ذكره الحافظ بن حجر رحمه الله تعالى في كتابه الإصابة قال : " وكان أسن من علي بعشر سنين فاستوفى أربعين سنة وزاد عليها على الصحيح" .

ولما بلغ النبي عليه الصلاة والسلام مقتل جعفر ظهر عليه الحزن كما جاء الحديث عن عائشة رضي الله عنها قالت : ((لَمَّا أَتَتْ وَفَاةُ جَعْفَرٍ عَرَفْنَا فِي وَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْحُزْنَ)) ، وأيضاً سيأتي معنا أنه لما نعى إليهم الأمراء دمعت عيناه وذرفت عيناه حزناً عليهم جميعاً ؛ على زيد بن حارثة حِبِّ رسول الله الأمير الأول لهؤلاء ، ثم جعفر ، ثم عبد الله ابن رواحة ، وجميع هؤلاء قُتلوا في هذه المعركة .

((**فأخذ الراية عبد الله بن رواحة الأنصاري** ﷺ)) ؛ تناول الراية بعده عبد الله بن رواحة ﷺ بناء على وصية النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

قال : ((**وتلوَّم بعض التلوم**)) ؛ أي تردد بعض التردد ، وهذا جاء في بعض الروايات ولم تأتِ بأسانيد صحيحة ، فإن كان ذلك ثابتاً فيكون هذا التردد شيئاً يسيراً وهو أمر جبلِّي، بحيث أنه رأى الأميرين قبله قُتلا أمامه فحصل عنده تردد يسير جداً . هذا على فرض الثبوت مع أن الرواية لم تأتِ بأسانيد صحيحة ، ومما يُضعِف ذلك : أنه مرّ معنا أن عبد الله بن رواحة هو الذي شجَّع الجيش كاملاً أن يمضوا للقتال وقال لهم : "الذي تريدون أمامكم " يعني الشهادة في سبيل الله ، فقال كلمات عظيمة شجع بها الجيش بكامله فنهضوا وقاتلوا ، فالأقرب أنه أخذ الراية ومضى دون تلوم ولا تردد وأقدم من فوره ﷺ . ((**ثم صمَّم وقاتل حتى قُتل**)) .

قال : ((**فيقال إن ثابت بن أقرم أخذ الراية وأراد المسلمون أن يؤمروه عليهم فأبى ، فأخذ الراية خالد بن الوليد**)) ؛ خالد بن الوليد سيف الله المسلول المجاهد البطل الذي

أكرمه الله ﷻ بنصرة عظيمة لدين الله ﷻ بعد أن كان قبل ذلك رأساً من رؤوس المقاتلين والخصوم والأعداء لدين الله ﷻ ، فتسلَّم الراية مقاتلاً في سبيل الله منتصراً لدين الله ﷻ .

قال : ((**فانحاز بالمسلمين وتلطف حتى خلَص المسلمون من العدو**)) ؛ يعني أخذهم برفق وبأناة وأخرجهم حتى خلصوا من الجهة التي أمام العدو صمْداً .

((**ففتح الله على يديه**)) ؛ يعني كانت هذه حنكة منه ﷺ في تخفيف وطأة الصدام الذي كان بين المسلمين وبين المشركين ، وتحيَّز بهم إلى جانب ﷺ ففتح الله على يديه . وجاء في صحيح البخاري عنه ﷺ أنه قال : ((لَقَدْ دُقَّ فِي يَدِي يَوْمَ مُؤْتَةَ تِسْعَةُ أَسْيَافٍ، وَصَبَرَتْ فِي يَدِي صَفِيحَةٌ لِي يَمَانِيَةٌ)) ، فالسيوف تتكسر والقائد ماضٍ في قتاله وبلاءه الحسن في الانتصار لدين الله ﷻ .

قال : ((**كما أخبر بذلك كله رسول الله ﷺ أصحابه الذين بالمدينة يومئذ وهو قائم على المنبر**)) ؛ يعني كان النبي عليه الصلاة والسلام في المدينة وهم في الشام ويخبر الصحابة بهذه الأحداث حدثاً حدثاً كأنه يشاهد المعركة ، وكأن المقاتلة أمامه عليه الصلاة والسلام .

قال : ((**فنعى إليهم الأمراء واحداً واحدا وعيناه ﷺ تذرفان**)) ؛ يعني قال : قُتل الآن زيد ، ثم قال : قُتل الآن جعفر ، ثم قال : الآن قُتل عبد الله ، ثم قال : أخذ الراية سيف من سيوف الله يعني خالد بن الوليد ﷺ .

((**والحديث في الصحيح**)) ؛ أي في صحيح البخاري من حديث أنس بن مالك ﷺ .

قال : ((**وجاء الليل فكفَّ الكفار عن القتال**)) .

ثم ذكر المصنف خلاصة مفيدة ومهمة ، حاصل هذه المعركة قال : ((**ومع كثرة هذا العدد وقلة عدد المسلمين بالنسبة إليهم**)) ؛ على رواية من قال أنهم مئة ألف ومئة ألف ، والرواية الأخرى أنهم جموع غفيرة هم أضعاف المسلمين بكثير .

قال : ((**لم يُقتل من المسلمين خلْق كثير على ما ذكره أهل السير ، فإنهم لم يذكروا فيما سمُّوا إلا نحو العشرة**)) ؛ عشرة أشخاص ، يعني ثلاثة آلاف مقابل مئة ألف أو مقابل هذه الجموع الغفيرة التي أضعاف مضاعفة للمسلمين وألتحم الصّفان لم يبلغ من قُتل من المسلمين هذا العدد . ذكر في البداية والنهاية أن الذين قُتلوا اثنا عشر ؛ أربعة من المهاجرين ، وثمانية من الأنصار .

قال : ((**وكرَّ المسلمون راجعين ، ووقى الله شر الكفرة ولله الحمد والمنة**)) .

ثم يختم رحمه الله تعالى بفائدة عظيمة وحصيلة مباركة لهذا البعث فيقول : ((**إلا أن هذه الغزوة كانت إرهاصاً لما بعدها من غزو الروم ، وإرهاباً لأعداء الله ورسوله**)) ؛ إرهاصاً : أي تقْدمة لما سيأتي بعدها من غزو الروم. والغزو الذي كان عليه الصلاة والسلام لأرض الشام في زمن النبي عليه الصلاة والسلام كان ثلاث مرات : الأول دومة الجندل ، ثم مؤتة ، ثم تبوك .

وبهذا يُنهي رحمه الله تعالى الكلام على هذا البعث المبارك ، بعث النبي عليه الصلاة والسلام لهذا الجيش إلى مؤتة .

قال رحمه الله تعالى :

[**فصلٌ (فتح مكة) : نذكر فيه ملخص غزوة فتح مكة التي أكرم الله ﷻ بها رسوله وأقرَّ عينه بها ، وجعلها علَماً ظاهراً على إعلاء كلمته وإكمال دينه والاعتناء بنصرته ؛ وذلك لما دخلت خزاعة ـ كما قدَّمنا ـ عام الحديبية في عقد رسول الله ﷺ ، ودخلت بنو بكر في عقد قريش ، وضُربت المدة إلى عشر سنين ، أمِن الناس بعضهم بعضاً ، ومضى من المدة سنة ومن الثانية نحو تسعة أشهر ، فلم تكمل حتى غدا نوفل بن معاوية الدِّيلي**

فيمن أطاعه من بني بكر بن عبد مناة فبيَّتوا خزاعة على ماء لهم يقال له الوتير ، فاقتتلوا هناك بذحول كانت لبني بكر على خزاعة من أيام الجاهلية ، وأعانت قريشٌ بني بكر على خزاعة بالسلاح، وساعدهم بعضهم بنفسه خِفية ، وفرَّت خزاعة إلى الحرم فاتبعهم بنو بكر إليه ، فذكّر قوم نوفلٍ نوفلاً بالحرم وقالوا : اتق إلهك . فقال لا إله له اليوم ، والله يا بني بكر إنكم لتسرقون في الحرم أفلا تدركون فيه ثأركم ؟ قلت: قد أسلم نوفل هذا بعد ذلك وعفا الله عنه ، وحديثه مخرج في الصحيحين رضي الله تعالى عنه . وقتلوا من خزاعة رجلاً يقال له منبِّه ، وتحصَّنت خزاعة في دور مكة ، فدخلوا دار بُديل بن ورقاء ، ودار مولى لهم يقال له رافع ، فانتفض عهد قريش بذلك . فخرج عمرو بن سالم الخزاعي وبديل بن ورقاء الخزاعي حتى أتوا رسول الله ﷺ فأعلموه بما كان من قريش واستنصروه عليهم ، فأجابهم ﷺ وبشَّرهم بالنصر ، وأنذرهم أن أبا سفيان سيقدم عليهم مؤكداً العقد وأنه سيردُّه بغير حاجة ؛ فكان كذلك ، وذلك أن قريشاً ندموا على ما كان منهم فبعثوا أبا سفيان ليشدَّ العقد الذي بينه وبين محمد ﷺ ويزيد في الأجل ، فخرج فلما كان بعسفان لقي بُديل بن ورقاء وهو راجع من المدينة فكتمه بديل ما كان من رسول الله ﷺ ، وذهب أبو سفيان حتى قدِم المدينة فدخل على ابنته أم حبيبة زوج رسول الله ﷺ ورضي الله عنها، فذهب ليقعد على فراش رسول الله ﷺ فمنعته وقالت : إنك رجل مشرك نجس . فقال : والله يا بنية لقد أصابك بعدي شر. ثم جاء رسول الله ﷺ فعرض عليه ما جاء له ، فلم يجبه ﷺ بكلمة واحدة . ثم ذهب إلى أبي بكر رضي الله عنه فطلب منه أن يكلِّم رسول الله ﷺ فأبى عليه ، ثم جاء إلى عمر رضي الله عنه فأغلظ له وقال : أنا أفعل ذلك ؟! والله لو لم أجد إلا الذَّر لقاتلتكم به . وجاء علياً رضي الله عنه فلم يفعل ، وطلب من فاطمة بنت رسول الله ﷺ ورضي الله عنها أن تأمر ولدها الحسن أن يجير بين الناس فقالت : ما بلغ بنيَّ ذلك ، وما يجير أحد على رسول الله ﷺ . فأشار عليه علي رضي الله عنه أن

يقوم هو فيجير بين الناس ، ففعل . ورجع إلى مكة فأعلمهم بما كان منه ومنهم ، فقالوا : والله ما زاد ـ يعنون علياً ـ أن لعب بك] .

****

ثم عقد المصنف الإمام بن كثير رحمه الله تعالى هذا الفصل في فتح مكة ، وكان هذا الفتح في السنة الثامنة من الهجرة في شهر رمضان المبارك ، وهو فتح عظيم لأن مكة هي بلد النبي عليه الصلاة والسلام الذي ولد فيه ونبئ وأُرسل ﷺ فيه ، ولقي فيه من أذى المشركين الشيء العظيم عليه وعلى أصحابه والتضييق عليهم والمحاصرة لهم والاستمرار في الأذى لهم إلى أن خرجوا وأصبحت لهم دولة وقوة وشوكة وكانت دولتهم في المدينة النبوية بلد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه . ففي شهر رمضان المبارك في السنة الثامنة من الهجرة فتح النبي عليه الصلاة والسلام مكة وأصبحت الدولة فيها للإسلام وقال عليه الصلاة والسلام بعد الفتح : ((لاَ هِجْرَةَ بَعْدَ الفَتْحِ)) يعني من مكة لأنها أصبحت بلد الإسلام والدولة فيها للإسلام ، وأذل الله ﷻ الشرك والمشركين ، وعلى إثر هذا الفتح العظيم المبارك دخل الناس في دين الله أفواجا ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً﴾ [النصر:١-٢] ، والدخول في دين الله أفواجاً كان في أهل مكة لما سقطت دولة المشركين ثم العرب والقبائل الأخرى الذين كانوا ينظرون ماذا يكون الشأن بين محمد ﷺ وقومه قريش ، فجعلوا لأنفسهم التبعية في ذلك ، فلما أكرم الله ﷻ المسلمين بهذا الفتح المبارك لمكة بلد الله الحرام دخلت القبائل في دين الله أفواجا .

قال الإمام بن كثير رحمه الله : ((**نذكر فيه ملخص غزوة فتح مكة التي أكرم الله ﷻ بها رسوله ﷺ ، وأقر عينه بها ، وجعلها علما ظاهراً على إعلاء كلمته وإكمال دينه والاعتناء بنصرته ﷺ**)) ؛ ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾ [الأنفال:٨] .

((**وذلك أنه لما دخلت خزاعة .كما قدمنا .عام الحديبية في عقد رسول الله ﷺ ، ودخلت بنو بكر في عقد قريش ، وضُربت المدة على عشر سنين**)) ؛ هنا سيتحدث الإمام بن كثير رحمه الله تعالى عن سبب اتجاه النبي عليه الصلاة والسلام بهذا الجيش لفتح مكة ، مع أنه – كما مرّ معنا – كان الاتفاق بين النبي عليه الصلاة والسلام وبين المشركين في صلح الحديبية أن يأمن الناس بينهم وبينه فلا يكون قتال لمدة عشرة سنوات ، وكُتب ذلك في شروط صلح الحديبية ، وهذا الصلح فتحٌ عظيم منَّ الله ﷻ به على رسوله عليه الصلاة والسلام وسماه الله فتحاً ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً ﴾ [الفتح:١] ، ونزل على إثره سورة الفتح كاملة ، وعلى إثره بدأ عليه الصلاة والسلام يرسل الرسل إلى الملوك ، لأنه حصل الآن أمن، والعدو اللّدود المخاصم للنبي عليه الصلاة والسلام تمت بينهم وبينه أمن لمدة عشر سنوات ، فتفرغ النبي عليه الصلاة والسلام لبعث الرسل بالكتب يدعو إلى الإسلام ويدعو إلى دين الله ، وبدأت رقعة الإسلام تتسع وأعداد المسلمين يتزايد ، ومن أدل الدليل على التزايد العظيم لأعداد المسلمين أن الجيش الذي جاء مع النبي ﷺ إلى مكة عشرة آلاف ، ونذكر جميعاً أن العدد الذي جاء إلى المدينة في غزوة الأحزاب من كفار قريش عشرة آلاف ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْراً وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً ﴾ [الأحزاب:٢٥] ، فالعدد نفسه عشرة آلاف يتقدم إلى مكة ، ومرّ معنا قول النبي عليه الصلاة والسلام في حديث سليمان ابن صُرد: ((الآنَ نَغْزُوهُمْ وَلاَ يَغْزُونَنَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ)) ، ففعلاً غزاهم عليه الصلاة والسلام بمثل العدد الذي جاؤوا به إلى المدينة ، وردّ الله ﷻ كيدهم في نحورهم ﴿ لَمْ يَنَالُواْ خَيْراً وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً ﴾ .

فيتحدث هنا ابن كثير رحمه الله تعالى عن سبب ذهاب النبي عليه الصلاة والسلام إلى مكة بهذا الجيش لمقاتلة المشركين ولفتح مكة ، مع أنه كان بينهم أمن اتفقوا عليه في الكف عن القتال لمدة عشر سنوات ، والنبي عليه الصلاة والسلام أهل الوفاء ؛ فيقول رحمه الله :

((**لما دخلت خزاعة –كما قدمنا– عام الحديبية في عقد رسول الله ﷺ ، ودخلت بنو بكر في عقد قريش وضُربت المدة إلى عشر سنين ، أمِن النّاس بعضهم بعضا ، ومضى من المدة سنة ومن الثانية نحو تسعة أشهر**)) ؛ مضى من المدة سنة وتسعة أشهر والأمور هادئة ليس فيها قتال ولا مناوشات ، والناس في أمن لا أحد يتعدى على الآخر ، الجميع ملتزم بهذا الشرط من شروط صلح الحديبية .

((**فلم تكمُل** – أي السنة الثانية – **حتى غدا نوفل بن معاوية الديلي فيمن أطاعه من بني بكر بن عبد مناة فبيَّتوا خزاعة على ماء لهم يقال له الوتير**)) ؛ الوتير : ماء لخزاعة يقع جنوب غرب مكة على حدود الحرم يُطلق على جزء منه الآن الكَعْكِيَّة ، فكانت تلك هي مناطق خزاعة ، فبغتهم وبيَّتهم على ماء لهم يقال له الوتير ((**فاقتتلوا هناك**)) ؛ بسبب ماذا ؟

قال : ((**بذحول كانت لبني بكر على خزاعة من أيام الجاهلية**)) ؛ الذحول : جمع ذحل وهو ثأر الجاهلية والأحقاد والعداوات التي كانت بينهم ، فكان بين بني بكر وخزاعة عداوات وأحقاد وثارات جاهلية ، فبيَّتهم نوفل فيمن أطاعه من جماعته بني بكر فبيَّتهم ليلة فحصل قتال .

أيضاً ((**وأعانت قريش بني بكر على خزاعة بالسلاح**)) ؛ أي أمدّوهم بالسلاح ، لأن بني بكر على عقد قريش ، وخزاعة على عقد النبي عليه الصلاة والسلام .

((**وساعدهم بعضهم بنفسه خفية**)) ؛ بعض قريش قالوا نحن الآن في ليل وما يعلم بنا محمد ، فمنهم من أمدهم بسلاح ، ومنهم من ذهب بنفسه ينصر بني بكر على خزاعة .

قال : ((**وفرَّت خزاعة إلى الحرم فاتبعتهم بنو بكر إليه ، فذكّر قوم نوفل نوفلاً بالحرم**)) ؛ قالوا الآن هم في الحرم ، والحرم له حرمته ، ومرّ معنا سابقاً احترام المشركين للحرم في القتال

حتى إنهم لما أرادوا قتل خُبيب ﷺ خرجوا به إلى الحِل وقتلوه هناك . فهنا ذكَّروا نوفل ، قالوا : نحن في الحرم الآن ، وخزاعة في الحرم .

((**وقالوا : اتق إلهك**)) ؛ مرادهم بإلهه : الصنم الذي يعبده .

((**فقال : لا إله له اليوم**)) ؛ مستشيط في غضبه وفي ثأره وفي إقدامه على مقاتلة هؤلاء .

((**قال : والله يا بني بكر إنكم لتسرقون في الحرم أفلا تدركون فيه ثأركم ؟**)) ؛ أتاهم بحجة ، قال الآن يحصل لكم سرقات في الحرم وهذا ثأر لكم ، ألا تأخذون بثأركم في الحرم ؟ يحرِّضهم على المقاتلة لخزاعة حتى مع أنهم كانوا في الحرم وكانوا يدركون حرمة الحرم ومكانته فلم يبالِ بذلك .

هذا الآن أصبح نقض للعهد الذي كان بين المشركين والنبي عليه الصلاة والسلام ، وأدركوا فعلاً أنهم قد نقضوا العهد وأنهم وقعوا الآن في ورطة عظيمة بنقضهم لعهد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه .

يقول المصنف رحمه الله : ((**قلتُ : قد أسلم نوفل**)) ؛ سبحان الله !! نوفل تسبَّب في الفتح لأنه هو السبب المباشر لنقض هذا العهد ؛ ثم يمنُّ الله ﷻ عليه بالإسلام ، والمنّة لله على من يشاء من عباده . فلاحظ ؛ الرجل في عنفوانه وفي ثأره وفي جاهليته وفي مقاتَلته في الحرم ، عدم مراعاته للحرمات ، تحريضه على المقاتلة ، كل هذه الأمور ، ثم فيما بعد أسلم ﷺ عام الفتح وكان عمره ستين سنة ، وحجّ مع أبي بكر سنة تسع ومع النبي ﷺ سنة عشر ، ثم عاش بعدها ستين أخرى ، ستين في الجاهلية وستين في الإسلام ، ومات ﷺ بالمدينة .

أيضاً ممن قيل فيه مثل هذا : حسان ابن ثابت ﷺ ؛ عاش مائة وعشرين سنة ، منها ستون في الجاهلية وستون في الإسلام . وذكر ابن الأثير قال : عاش أبوه ثابت وجده المنذر وأبو جده حرام ، كل واحد منهم عاش مائة وعشرون سنة ، ولا يعرف في العرب مثلهم أربعة

تناسلوا في صُلب واحد عاش كل واحد منهم مائة وعشرين سنة. يعني الابن والأب والجد وجد الأب متناسلين كلهم عاشوا مائة وعشرين سنة.

هناك كتاب للحافظ ابن منده أفرده فيمن عاش من الصحابة مائة وعشرين سنة ، واختصره السيوطي في (ريح النسرين فيمن عاش من الصحابة مائة وعشرين) ، وكل من الكتابين مطبوع ، وهذه الأخبار المتعلقة بنوفل والمتعلقة بحسان وأيضاً آخرين من الصحابة عاشوا هذه المدة مائة وعشرين سنة جمعهم ابن منده في هذا الجزء ولخصه السيوطي رحمه الله تعالى في جزء أفرده ليلخِّص فيه كتاب ابن منده .

قال : ((**قلت قد أسلم نوفل هذا بعد ذلك وعفا الله عنه ، وحديثه مخرج في الصحيحين**)) ؛ له ﷺ حديث واحد مخرج في الصحيحين وهو أن النبي عليه الصلاة والسلام قال : ((مِنَ الصَّلَاةِ صَلَاةٌ مَنْ فَاتَتْهُ فَكَأَنَّمَا وُتِرَ أَهْلَهُ وَمَالَهُ)) .

قال رحمه الله : ((**وقتلوا من خزاعة رجلاً يقال له منبِّه ، وتحصَّنت خزاعة في دور مكة ، فدخلوا دار بديل بن ورقاء ، ودار مولى لهم يقال له : رافع ، فانتقض عهد قريش بذلك ، فخرج عمرو ابن سالم الخزاعي وبُديل بن ورقاء الخزاعي حتى أتوا رسول الله ﷺ فأعلموه بما كان من قريش واستنصروه عليهم**)) ؛ بعد انتقاض هذا العهد خرج عمرو بن سالم الخزاعي – من خزاعة – إلى النبي عليه الصلاة والسلام ومعه نفر من خزاعة ليخبروه أن قريش نقضت العهد ، ويطلبوا من النبي عليه الصلاة والسلام النصرة .

((**فأجابهم ﷺ وبشَّرهم بالنصر**)) ؛ أجابهم بأنه سينصرهم ، وبشرهم بالنصر .

((**وأنذرهم أن أبا سفيان سيقدُم عليه مؤكداً العقد**)) ؛ لأن قريش عرفت أنها وقعت الآن في ورطة عظيمة جداً بنقضهم لهذا العهد الذي كان منهم مع رسول الله ﷺ أن يأمن الناس مدة عشر سنوات ، فلم تتم سنتين إلا وقد نقض الكفار عهدهم .

قال : ((**وأنه سيردُّه بغير حاجة**)) ؛ يعني لن يستفيد من مجيئه ، مجيئه لن يكون من وراءه طائل ولن يكون من وراءه فائدة .

((**فكان كذلك**)) ؛ فعلاً جاء أبو سفيان وحاول محاولات عديدة هنا وهناك لكن رجع بدون طائل .

قال : ((**وذلك أن قريشاً ندموا على ما كان منهم ، فبعثوا أبا سفيان ليشد العقد الذي بينهم وبين محمد ويزيد في الأجل**)) ؛ يشد العهد يعني يوثق ويؤكد العهد وأنهم ماضون عليه وملتزمون وهذا خطأ... الخ ، وفي الوقت نفسه يزيد في الأجل ويمدوا المدة في الأمن أكثر من عشر سنوات .

((**فلما كان بعسفان لقي بديل بن ورقاء وهو راجع من المدينة ، فكتمه بديل ما كان من رسول الله ﷺ ، وذهب أبو سفيان حتى قدم المدينة فدخل على ابنته أم حبيبة زوج رسول الله ﷺ ورضي الله عنها ، فذهب ليقعد على فراش رسول الله ﷺ فمنعته وقالت : إنك رجل مشرك نجس ، وقال : يا بنية والله لقد أصابك بعدي شر**)) ؛ والذي أصابها رضي الله عنها بعده أعظم الخير وأكبر المنّة ، فكانت رضي الله عنها أمًّا للمؤمنين وزوجاً للنبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

قال : ((**ثم جاء رسول الله ﷺ فعرض عليه ما جاء له ، فلم يجبه بكلمة واحدة . ثم ذهب إلى أبي بكر عنه فطلب منه أن يكلم رسول الله ﷺ فأبى عليه**)) ؛ قبلها بسنوات قلائل جداً كان على مشارف المدينة بعشرة آلاف مقاتل وهو قائدهم ، ثم الآن يدخل إلى المدينة وحده !! ويذهب إلى النبي عليه الصلاة والسلام يلتمس إلى أبي بكر إلى ابنته إلى علي بن أبي طالب ، هنا وهناك يذهب يلتمس ويرجع بدون طائل !! رجع بمثل ما أتى ، مجيئه وذهابه سواء لا فائدة منه ، رجع بدون أن ينال أي فائدة .

قال : ((**ثم جاء إلى عمر فأغلظ له** – يعني القول – **وقال : أنا أفعل ذلك ؟ ! والله لو لم أجد إلا الذَّر لقاتلتكم به**)) ؛ يعني لو لم أجد سلاح إلا أقل شيء وأدنى شيء أمسكه وأقاتلكم به قاتلتكم .

((**وجاء علياً فلم يفعل ، وطلب من فاطمة بنت رسول الله ﷺ ورضي الله عنها أن تأمر ولدها الحسن أن يجير بين الناس ، فقالت : ما بلغ بني ذلك ، وما يجير أحد على رسول الله ﷺ**)) ؛ وتأمل هذا الرجل القائد الذي قبل أيام ماذا كان يصنع ، الآن يذهب إليهم إلى بيوتهم بيتاً بيتا يلتمس ويطلب ويرجع كما جاء .

قال : ((**فأشار عليه علي بن أبي طالب أن يقوم هو فيجير بين الناس ، ففعل**)) ؛ وهذه ليس لها ثمرة ، فعَل ذلك ومضى وظن أنه جاء بشيء .

((**ورجع إلى مكة فأعلمهم بما كان منه ومنهم ، فقالوا : والله ما زاد . يعنون علياً . أن لعب بك**)) ؛ قصدُهم: ما جئت بشيء . فالآن هم أوقعوا نفسهم بنقضهم للعهد في ورطة عظيمة وهذا أمر أراده الله ﷻ لحكمة بالغة ، لنصرة دينه وإعلاء كلمته ولفتح هذا البلد العظيم .

قال رحمه الله :

[**ثم شرع رسول الله ﷺ في الجَهاز إلى مكة ، وسأل الله ﷻ أن يعمِّي على قريش الأخبار ، فاستجاب له ربه تبارك وتعالى ، ولذلك لما كتب حاطب بن أبي بلتعة كتاباً إلى أهل مكة يُعلمهم فيه بما همّ به رسول الله ﷺ من العزم على قتالهم وبعَث به مع امرأة وقد تأوَّل في ذلك مصلحةً تعود عليه ، وقبِل ذلك منه رسول الله ﷺ وصدَّقه لأنه كان من أهل بدر ، وبعث رسول الله ﷺ علياً والزبير والمقداد رضي الله عنهم فردوا تلك المرأة من روضة**

خاخ وأخذوا منها الكتاب ، وكان هذا من إعلام الله ﷻ نبيه ﷺ بذلك ، ومن أعلام نبوته ﷺ] .

****

ثم قال الإمام بن كثير رحمه الله تعالى : ((**ثم شرع رسول الله ﷺ في الجهاز إلى مكة**)) ؛ يعني يجهز الجيش ويُعِدّ المسلمين والمقاتِلة ويرتب أمر القتال صلوات الله وسلامه عليه .

((**وسأل الله أن يعمّي على قريش الأخبار**)) ؛ يعني أن لا يأتيهم الخبر حتى يقْدُم ﷺ إليهم ، والمشركون في ذلك الوقت أصبحوا في خوف عظيم ، وكل يوم يتوقعون أن النبي عليه الصلاة والسلام قادم عليهم ، لكنه ﷺ سأل الله ﷻ أن يُعميَ عليهم الأخبار ((**فاستجاب له ربه تبارك وتعالى**)) .

قال : ((**ولذلك لما كتب حاطب بن أبي بلتعة كتاباً إلى أهل مكة يُعلمهم فيه بما همّ به رسول الله ﷺ من العزم على قتالهم**)) ؛ ولم يكن هذا منه ﷺ نكوصاً عن دينه أو رغبةً في نصرة الكفار ، وإنّما لأمر وسبب يتعلق بمصلحة دنيوية له عرضت .

قال : ((**وبعث به مع امرأة ، وقد تأول في ذلك مصلحةً تعود عليه**)) ؛ وهي أنّه كان له مصالح هناك ، فأحب بإخبارهم بهذا الخبر وإرسالهم به أن يكون له يد عليهم فيحفظون فيه مصلحته . واعتذر للنبي عليه الصلاة والسلام بذلك .

((**وقبِل ذلك منه رسول الله ﷺ وصدَّقه ، لأنه كان من أهل بدر**)) ؛ حتى إن بعض الصحابة لما عرضوا على النبي ﷺ أن يضربوا عنقه ، قال : ((إنه شهد بدراً ، وإن الله ﷻ قال في أهل بدر : اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ)) ، وليس معنى ذلك أن أهل بدر لا يقع منهم الذنب وأنهم بعد بدر عُصموا من الذنوب ، لكن الذنوب التي يقعون فيها ذنوب

مغفورة ، فإن الثمن جاء مقدَّم في هذه المعركة ؛ فجاءهم هذا العفو الكريم والمغفرة العظيمة ((اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ)) .

قال : ((**وصدَّقه لأنه كان من أهل بدر ، حين بعث رسول الله ﷺ علياً والزبير والمقداد** رضي الله عنهم ، **فردوا تلك المرأة من روضة خاخ**)) ؛ روضة خاخ : موضع بقرب حمراء الأسد جنوب المدينة تبعد عن المدينة ثلاثين كيلو متر ، يعني المرأة لم تُبعِد مشت من المدينة مسافة ثلاثين كيلو متر تقريباً ثم رُدَّت ورُدَّ الخطاب الذي كانت تحمله وفيه خبر النبي عليه الصلاة والسلام ، وهذا من استجابة الله جلا وعلا لنبيه ﷺ في أن يُعمِّي على المشركين الخبر.

قال : ((**وأخذوا منها الكتاب وكان هذا من إعلام الله ﷻ نبيه بذلك ومن أعلام نبوته** ﷺ)) ؛ وخبر حاطب وكتابته الخطاب وإرساله للمرأة وإرجاع هؤلاء الصحابة لها من أول الطريق جاء في الصحيحين من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه .